بوذا

مولد بوذا

عقد الملك سودهدانا حاكم قبيلة ساكية بالهند فى القرن السادس قبل الميلاد العزم على أن يختار شريكة حياته فوقع اختياره على مايا أجمل فتيات القبيلة .

وفى أمسية يوم من أيام الصيف بينما كانت هذه الملكة العروس متكئة على سريرها فى غرفة نومها إذ أغفت إغفاءة قصيرة رأت فيها أن أربعة ملوك حملوها هى وسريرها وكل شىء فى غرفة نومها إلى جبال هملايا ، ثم وضعوا السرير تحت شجرة باسقة . وأقبلت عليها بعد ذلك أربع ملكات أدخلنها الحمام وبعد أن استحمت ألبسنها أجمل الثياب وعطرنها بأطيب العطور ، ثم انتقلن بها إلى فراش مقدس فى منزل ذهبى فوق جبل من الفضة . وهبط فيل أبيض من فوق جبل من الذهب إلى هذا الجبل الفضى وفى خرطومه غصن من نبات البشنين ودخل المنزل ودار حول السرير ثلاث دورات ثم مس جانب الملكة الأيمن ودخل فى رحمها .

ولما استيقظت الملكة من نومها أخبرت زوجها بهذه الرؤيا فاستدعى أربعة وستين حكيما من حكماء القبيلة وأصحاب الرأى فيها وأكرمهم غاية الإكرام وأغدق عليهم العطايا والهبات ثم سألهم تفسير هذه الرؤيا فقالوا له : —

« لا ينشغل بالك أيها الملك السعيد لقد حملت الملكة بغلام وليس بأنثى . سوف يكون لك ولد وسوف يصبح هذا الولد ملكاً على البلاد إذا هو استقر فى بيته أما إذا غادر البيت وهام على وجهه فى الأرض فسوف يصبح بوذا أى كاشفاً لنقاب الجهل عن وجه هذا العالم » .

وتذكر الكتابات البوذية القديمة أنه قد حدث فى مملكة سودهدانا فى ذلك الوقت زلزال شديد زلزلت له الأرض كما حدثت عدة معجزات وخوارق منها إبراء الأعمى والأصم والأبكم كما خمدت النار فى كل بيت من بيوتها .

كانت الملكة مايا عندما استكملت أشهر الحمل تمشى فى إحدى حدائق القصر ، فلما جاءها المخاض جلست تحت شجرة كبيرة وارفة بعد أن حجبها الخدم عن الأنظار بستار خاص . ولما أرادت الملكة أن تنهض حاولت الاستعانة بغصن عال من غصون هذه الشجرة فما كان من هذا الغصن إلا أن انحنى من تلقاء نفسه حتى قارب يدها ، وما إن نهضت من

جلستها حتى وضعت طفلها فتلقفه أربعة من البراهمة فى شبكة نسجت خيوطها من أسلاك الذهب .

وعلى الرغم من أن المولود كان نظيف البدن لا يخالطه شىء من الدم وغيره إلا أن نبعين قد تفجرا أحدهما يفيض بالماء البارد والآخر بالماء الدافئ ، فقام البراهمة بغسل الطفل وأمه ثم أسلموه إلى أربعة ملوك تلقوه على رداء مصنوع من جلد الظباء ثم نقلوه على وسادة حريرية يحملها نفر من الأتباع .

وتذكر الأساطير البوذية أن هذا المولود قد هب واقفاً فسجدت له الآلهة والناس على حد سواء . ثم اتجه ببصره إلى كل الجهات ليرى هل من أحد يشبهه على قيد الوجود . ولما لم يجد نظيراً له خطا سبع خطوات ناحية الشمال ، ثم تتابع هذه الأسطورة العجيبة روايتها قائلة :

وبينما كان مهابراهما يحمل فى يده مظلة بيضاء يظلل بها هذا المولود ويحمل سوياما مروحة يروح بها عليه وفى أعقابهما رتل من الكائنات القدسية تحمل فى أيديها غير ذلك من شارات الملك ، إذ يقف بوذا بعد الخطوة السابعة ثم يهتف بصوت عال أشبه بزئير الأسد قائلا :

« إننى سيد هذا العالم » .

وتذهب هذه الأساطير أيضاً إلى أنه قد ولد فى اليوم

الذى ولد فيه بوذا المرأة التى تزوجها فيما بعد كما ولد فيله وحصانه وسائق عربته ، كذلك نبتت الشجرة التى تكشفت له تحتها أسرار الحياة .

وشاهد فى ذلك اليوم ذاته زاهد شهير يدعى استيا فى كبد السماء فوق صومعته بجبال الهملايا حفلا أقامته ملائكة السماء عرف أنه بمناسبة ولادة بوذا بين قبائل الساكية . فسعى هذا الزاهد إلى بيت سودهدانا لمشاهدة هذا المولود العظيم . ولما وقف فى حضرة الملك سأله عن سبب مجيئه فقال له « أيها الملك لقد ولد لك طفل ولما كنت راغباً فى رؤيته فقد سعيت إلى بيتكم لهذا الغرض » . فأجابه الملك « إن الطفل نائم أيها الحكيم الزاهد فانتظر قليلا حتى يفيق من نومه » فقال الزاهد : « إن مثل هذه الكائنات العظيمة لا تنام طويلا أيها الملك ! إنها متيقظة بطبيعتها » .

ولم يلبث أن حمل سودهدانا ولده بين ذراعيه وأراه للحكيم الزاهد فتهلل وجه هذا بشراً وحبوراً ثم أشار إلى من حوله إلى أن الطفل يحمل العلامات الاثنتين والثلاثين التى تميز الرجل العظيم مثل الأصابع الطويلة والأعقاب البارزة والأرساغ الناتئة ، كما يزين فمه أربعون سناً بيضاء ولسان كبير . . . !

على أن هذا الزاهد استيا لم يلبث أن انفجر باكياً فلما

سأله الملك عن ذلك أخبره أن هذا الطفل سوف يصل إلى درجة التنوير السامية وأنه سيهدى العالم إلى طريق الحق والصواب فهو يبكى لأن العمر سوف لا يمتد به ليصبح من تلاميذ هذا البوذا العظيم وأنصاره .

وكانت تظهر على هذا الطفل مخايل النبوغ والذكاء وهو لا يزال طفلا صغيراً . وقد استقر العزم على إلحاقه بأحد المعابد ليتثقف فيه حسب العادة التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . وقد صحبته إلى هناك خالته التى حلت محل أمه بعد وفاتها وتزوجت من أبيه .

وقد سألها الطفل بصوت حنون إلى أين هى سائرة به ، فلما أخبرته بوجهتها أنشدها ثلاثة أبيات من الشعر ذكر فيها أنه ليس فى معبد من المعابد إله يدانيه . ثم قال لها إنه سوف يخضع لحكم التقاليد وسيذهب معها إلى المعبد ، وما إن وصل إلى هناك حتى تهاوت جميع الأصنام التى فى المعبد عند قدميه .

وذهب هذا الصبى بعد ذلك إلى المدرسة ليتعلم الأبجدية فسأل زملاءه الأطفال بسذاجة : أية أبجدية سوف يتعلمها فإنه يلم بجميع الأبجديات وتلا عليهم دون مبالاة أو اكتراث أربعا وستين أبجدية بما فيها الأبجدية الصينية .

وإذا كانت هذه المعجزات والأعاجيب قد بدت من

هذا الطفل وهو فى سنى حياته الأولى فما بالك بالمعجزات الأخرى التى بدت منه عندما تقدم به العمر كما تذكر القصص والأساطير .

بوذا الحقيقى

أخذ العلماء يمحصون الكتابات القديمة ويقارنون بين نسخها المختلفة ويزنون بميزان النقد الصحيح البرىء تلك الروايات والأعاجيب التى تعج بها هذه الكتب ، وأخيراً تكشفت لهم حقيقة هذا الحكيم الكبير ، فإذا به رجل جذاب تهفو إليه النفوس لبساطة شخصيته وقوة أثرها ولكنه كان فى الوقت ذاته جبار العقل له إرادة حديدية لا تقهر .

ولشخصية هذا الرجل من المتناقضات ما لكل شخصية من الشخصيات العالمية التى ظهرت فى التاريخ . فأحياناً تبدو منه أعمال تجعلك تسلكه فى عداد المتصوفة الحالمين . وفى أحيان أخرى تسمع منه أقوالا تستشف منها أنه فيلسوف من أتباع المذهب المادى . وهو يبدو لنا فى بعض صفاته المميزة له رقيق الإحساس كرقة النساء ، ومع ذلك فإن مذهبه الفلسفى على جانب كبير من قوة المنطق .

ودلت البحوث المستفيضة التى قام بها العلماء بعد مقارنتهم

الترجمات الحديثة للكتب البوذية باللغة البالية Pali (وهى اللغة الهندية التى كان يتحدث بها بوذا نفسه) بالمصادر السنسكريتية على أن هذا الرجل قد ولد فى بيت الملك بقبيلة ساكيه من عشيرة جوتاما التى انتشرت وعلا شأنها فى البقعة التى إلى الشمال من بنارس الحالية بأميال قليلة ، ومن ثم فإنه يطلق عليه أحياناً اسم « سكياموني » أى حكيم قبائل الساكية ، وقد غلب عليه اسم جوتاما ثم عرف بعد أن تكشفت له أسرار الحياة باسم جوتاما البوذا أى جوتا ما المستنير .

والظاهر أن اسمه الأصلى هو سدهارتا ومعنى هذا الاسم « الرجل الذى بلغ هدفه » .

ولا نعرف إلا القليل عن حداثة بوذا ، وكل ما نعرفه عنه أنه شب وترعرع وسط مظاهر الترف والنعيم . وقد ورد فى بعض الكتابات الدينية البوذية حديث على لسان بوذا جاء فيه

« لقد كنت مترفاً أيها النساك مترفا كل الترف وبلغت الغاية فى الترف . لقد حُفرتْ فى قصر أبى البرك المغطاة بنبات البشنين ، وغطيت واحدة منها بالبشنين الأزرق والثانية بالبشنين الأحمر والثالثة بالبشنين الأبيض . وكلها حفرت لمتعتى ولأجل خاطرى . ولم أكن أستعمل إلا خشب الصندل من نتاج بنارس ، وكانت ملابسى من القماش المصنوع فى

ذلك البلد وكذلك قماش أقمصتى ومجسداتى ومعاطفى . وكانت تظللنى على الدوام مظلة بيضاء حتى لا أتعرض للبرد أو لحرارة الشمس أو للغبار أو للأعشاب أو الندى .

وكانت لى قصور ثلاثة واحد منها لفصل الشتاء والثانى لفصل الصيف والثالث للفصل المطير . وكنت أقضى فى القصر المخصص للفصل المطير أربعة أشهر تحف بى القيان والجوارى ، ولم أكن أغادر القصر طوال هذه الأشهر الأربعة » .

وهناك قصص وأساطير أخرى تروى عن قوة بوذا الجسدية على الرغم من هذه الحياة الناعمة المترفة ، منها أن السهم كان يخرج عن قوسه لمسافة عشرة أميال ، وأنه ألقى ذات مرة بفيل من فوق الخندق المحيط بالمدينة .

وما إن بلغ بوذا السادسة عشرة من عمره حتى شيد له أبوه هذه القصور الثلاثة السالفة الذكر ، ثم أخذ يتطلع إلى الفتاة التى تصلح لأن تكون زوجا لابنه المدلله . غير أن جيرانه من الملوك والزعماء كانوا راغبين عن أن يزوجوا بناتهم لمثل هذا الشاب المترف مخافة أن تكون حياة الترف والخمول قد أفسدته فلم يعد صالحاً للحياة الزوجية الهانئة . ولا نعرف على التحقيق ما إذا كان بوذا قد تزوج فى سن السادسة عشرة أو التاسعة عشرة أو العشرين ، فالروايات

تختلف فى ذلك اختلافاً شديداً .

والذى نستخلصه من الروايات الكثيرة التى تروى لنا أخباره أن بوذا قضى طفولته وشبابه فى قصور أبيه وكان يعيش فيها عيشة الأمراء المنعمين المدللين ، وأنه أظهر فى الوقت ذاته قوة بدنية هائلة وأنه تزوج من أميرة تدعى «ياسودارا » وعاش معها متنقلا بين هذه القصور الثلاثة قبل أن تلد له ابنه « رهولا » .

وقد عاش بوذا طوال هذه الفترة من حياته عيشة خيالية سعيدة لا يؤدى فيها عملا من الأعمال . وكانت سهول الهند فى ذلك الوقت خصبة ممراعة ، وكان أمراء الهنود الذين انحدروا من العشيرة الآرية القديمة على جانب كبير من الجاه والثراء ، ابتنوا لأنفسهم القصور الجميلة الفسيحة وعاشوا فيها عيشة كلها لهو وترف يستمعون إلى القيان ويميلون حيث تميل بهم أهواؤهم وتزعاتهم ، ويمارسون أنواعا مختلفة من الألعاب والمسابقات .

وتذكر الأساطير أن أباه قد حال بينه وبين معرفة أى شىء من مظاهر البؤس والفقر والألم المنتشرة خارج أسوار قصوره ، فقد عاش بوذا فى هذه القصور دون أن يعرف أن فى العالم فقراً وبؤساً وألماً وموتاً . لقد عمد أبوه إلى إرسال نفر من أتباعه قبل خروج بوذا الشاب للنزهة لإخلاء الطريق

من كل مظهر تعافه النفس بحيث لا يقع نظر بوذا إلا على كل مفرح بهيج .

واتفق أن ركب الأمير عربته ذات يوم وهو فى الثلاثين من عمره وخرج من أبواب القصر فشاهد رجلا مسناً أضناه العمل حتى ناءت أرجله الكليلة بحمل أعباء الحياة ، فأشار إليه وسأل سائق عربته « تشنا » عن شأنه فأجاب تشنا بأن هذا العالم ملىء بالمساكين ويستوى أن يزيد عددهم واحداً أو ينقص واحدا . فحزن الأمير الشاب حزناً شديداً ولم يقل شيئاً ثم قفل راجعاً إلى القصر وعاش مع زوجه وأبيه وأمه وحاول أن يكون سعيداً . وترك الأمير القصر مرة أخرى بعد ذلك بقليل فصادف رجلا يقاسى مرضاً وبيلا فسأل سائق عربته « تشنا » عن سبب آلامه فأجابه بأن العالم ملىء بالمرضى ولا حيلة لنا فى دفع هذا البلاء ولا ينبغى أن نهتم به كثيراً . ولما سمع الأمير الشاب ذلك حزن حزناً شديداً ولكنه عاد ثانية إلى أهله وعشيرته . ثم مر على ذلك أسابيع قلائل وفى ذات ليلة أمر سدهارتا بإعداد عربته كى يذهب بها إلى النهر للاستحمام . وفى الطريق أجفلت الخيل فجأة حين رأت جثة رجل متعفنة بشعة المنظر ملقاة فى حفرة على جانب الطريق ، ففزع الأمير الشاب لأنه لم يكن قد أبيح له من قبل أن يرى مثل هذه

الأشياء ولكن « تشنا » سأله أن لا يحفل بمثل هذه الأمور التافهة فالعالم ملىء بالأموات كما أن قانون الحياة يقضى بأن ينتهى كل شىء إلى نهاية ، فليس فى العالم شىء خالد والقبر فى انتظار الجميع ولا مهرب منه .

ولما عاد سدهارتا إلى قصره فى هذا المساء استقبل بالموسيقى لأن زوجته وضعت فى غيبته غلاماً فابتهج الناس لأنهم عرفوا آنئذ أنه قد قيض لهم ولى للعهد ، فقرعوا الطبول احتفالا بهذا الحادث ، ولكن سدهارتا لم يشاركهم أفراحهم فقد تكشفت الحياة أمام ناظرية وعرف ما يكتنف حياة الإنسان من فواجع . وكان مشهد الموت والعذاب يلاحقه كحلم مزعج .

كانت هذه المناظر السبب المباشر الذى جعل بوذا يغادر قصره ويخرج إلى هذا العالم الفسيح لنشر رسالته بين الناس . على أنه كانت هناك فى واقع الأمر دوافع أخرى قد تكون خافية على هذا الأمير الشاب نفسه دفعته إلى هجر بيته وأسرته .

تعترى الشباب فى سن معين رغبة جامحة فى ترك ذويهم والانطلاق إلى رحاب هذا العالم الفسيح لمعرفة ما يضمه من عجائب ومخلوقات ، وكان بوذا فى ذلك الوقت قد بلغ الثلاثين من عمره واستكمل رجولته ونما عقله ؛ وهو الذى بدرت منه آيات

الذكاء والنبوغ (وهو صبى) لم يبلغ الحلم .

إن سن الثلاثين هى السن التى خرج فيها زرادشت لهداية الناس قبل ذلك بقرن من الزمان . وكان المسيح أيضاً فى الثلاثين من عمره عندما طالع الناس بدينه الجديد .

ولعل أعجب ما فى الأمر هو كيف ترك بوذا منزله وهجر أهله فى نفس الأسبوع الذى وضعت فيه زوجه ابنه رهولا بعد زواج موفق سعيد دام عشر سنوات ؟ إن المعروف عند علماء الاجتماع أن الرجل قبيل أن تلد زوجه أو بعد ذلك مباشرة تنتابه نزعة غريبة تدفعه إلى هجر بيته وزوجه . وليس ذلك الأمر مقصورا على طبقة من الناس دون غيرها بل هى ظاهرة ملموسة لدى جميع طبقات الناس على حد سواء ، ويمكن التأكد من ذلك بالاطلاع على قضايا الطلاق والظروف التى حدثت فيها .

وقد جرت العادة فى بعض القبائل البدائية أن يحجز الزوج فى كوخه عنوة خلال الفترة التى تكون فيها زوجه على وشك الوضع . وهذا يدعونا إلى القول بأن القبائل البدائية نفسها تدرك هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة .

والأمر الثانى أن بوذا عندما أطل برأسه على غرفة زوجه وشاهدها هى ورضيعها على ضوء المصباح المنير بالزيت المعطر

غارقين فى أزهار الورد والياسمين ، أدرك أن هذا الرضيع سوف يصبح عما قريب قيداً يقيده بالمنزل لا يستطيع منه فكاكاً فأراد أن يتحلل من هذا القيد قبل أن يتمكن منه .

كان القمر يتلألأ فى تلك الليلة فهب سدهارتا من مرقده وأخذ يفكر فى أشياء كثيرة ورأى أن السعادة لن تعود إليه قط إلا إذا وجد حلا لمعضلة الوجود . وصح عزمه على أن يلتمس هذا الحل بعيداً عن جميع الأشخاص الذين يحبهم ، فاتجه برفق إلى الغرفة التى ترقد فيها زوجه مع طفلها ثم نادى خادمه الأمين تشنا وطلب إليه أن يتبعه . وخرج الاثنان فى ظلمة الليل أحدهما يبحث عن سكينة نفسه والآخر يخدم سيداً محبوباً فى أمانة وإخلاص .

الأمير المتسول

سار سدهارتا بجواده طول الليل ووراءه خادمه تشنا ممسكاً بذيل الجواد ، فلما تنفس الصباح كان أول عمل قام به أن اجتذ شعر رأسه بحد سيفه ونزع عنه ثيابه الملكية وأعاد الحصان وخصلة من شعره إلى أسرته مع خادمه الأمين تشنا . ثم ارتدى رداء أصفر اللون أصبح فيما بعد شعار البوذيين وغدا منذ تلك اللحظة ناسكاً جوّالا لا يملك من حطام الدنيا سوى طاس

وموسى وخياط وزنار وإناء يحفظ فيه الماء .

اتجه سدهارتا شطر المشرق وبعد مرحلة طويلة جاس فيها بلاداً واسعة التقى بحكيمين من حكماء ذلك الوقت ولكنهما قصرا دون مساعدته على إدراك الحقيقة العليا . وكان سدهارتا يقضى معظم أيامه صائماً يذيق بدنه ألواناً مختلفة من الحرمان كى يذله ويخضعه لروحه العالية . وكان الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى ناسك مقدس شديد الزهد والتقشف . وقد تبعه فى تلك الفترة من حياته نفر من المريدين لا يزيد عددهم على الخمسة .

وبعد مجاهدات ورياضات بدنية عنيفة أدرك سدهارتا أن ذلك الأسلوب من الحياة لا يوصله إلى معرفة الحقيقة ولا يكسبه فطنة وبصيرة ، فلا بد إذاً من أن يكون هناك طريق آخر يوصل إلى تلك الغاية المنشودة ويزيح النقاب عن عقولنا وأنفسنا . لذلك تجنب بوذا هذه الرياضات البدنية العنيفة التى يقصد من ورائها إذلال البدن وإماتة الشهوات لأنه أدرك أن العقل السليم لا يكون إلا فى الجسم السليم .

اختار بوذا ذلك الطريق الذى أسماه الطريق الأوسط لضبط النفس ، وكان يشير فى أحاديثه إلى السنوات التى قضاها فى تعذيب بدنه وإذلاله بقوله « إنها سنوات أنفقتها فى محاولة

عقد الهواء فى أنشوطة » . وما إن بدأ بوذا يعطى بدنه حقه من طعام الأرز واللبن الخاثر حتى هجره تلاميذه الخمسة وقد أفزعهم ما أقبل عليه بوذا بعد مجاهداته وريآضاته السابقة . ولعل ما أحس به من خيبة لتخلى تلاميذه الخمسة عنه ، أو لما أحس به من قوة جديدة سرت فى بدنه نتيجة عودته إلى تناول الطعام ، أو لكلا السببين معاً قد بعث فى نفسه عزمة جديدة جبارة للكشف عن سر ألم الناس وبؤسهم فى الحياة .

جلس بوذا متربعاً تحت شجرة تين ، وعزم على أن يظل على جلسته هذه مهما طال به الأمد إلى أن تتكشف له الحقيقة وقد قال :

« فليجف جلدى وتضمر عضلاتى ويهن العظم منى كما يشاء ، وقد يجف لحمى ويجمد الدم فى عروقى ولكنى سوف لا أبرح مجلسى هذا قبل أن تتكشف لى الحقيقة وأحيط بأسرار الحياة » .

وظل بوذا على هذا الحال أربعة أسابيع أو سبعة كما فى بعض الروايات وأخيراً بلغ بوذا فى ليلة من الليالى مراده ومناه .

وفاة بوذا

عاش بوذا حتى بلغ الثمانين من عمره إذ توفى حوالى عام

٤٨٠ قبل الميلاد ، فى إحدى القرى الصغيرة المغمورة وحوله خمسمائة من أتباعه ومريديه . لقد انتاب بوذا المرض إبان الفصل المطير واشتد به المرض ولكنه تحامل على نفسه وضبط وعيه حتى يستطيع أن يودع تلاميذه وأتباعه قبل أن يودع الحياة كلها . وقد سأله بعض أتباعه أن يترك بعض الوصايا لتستنير بها الطائفة البوذية فأجابه بوذا قائلا : « لقد بشرت بالحق دون أن أفرق بين العقيدة الظاهرة والأخرى المستورة ، إن بوذا ليس لديه شيء أشبه بالقبضة المغلقة التى يستبق بها المعلم بعض أشياء دون إعلانها ، إذ لا أدرى لم يستبق المعلم لنفسه بعض التعاليم الخاصة بأى موضوع يتصل بنظام العقيدة دون إعلانها » ثم أردف قائلا :

« كونوا سراجاً تستضيء به نفوسكم ولا تركنوا لأى حمى خارج نفوسكم ، واستمسكوا بالحق واجعلوه نبراساً لكم ، ولا تتطلعوا إلى أحد تجعلوه حمى وملاذاً لكم إلى جانب نفوسكم » . واستدعى بوذا تلامذته ومريديه قبل أن يجود بأنفاسه الأخيرة وسألهم هل من أحد منهم يشعر بشك أو ريبة فى بوذا وتعاليمه ، ولكنهم لاذوا جميعاً بالصمت العميق وعند ذلك خاطبهم قائلا :

« انظروا أيها الإخوان : إنى أنصحكم قائلا إن الفساد

والانحلال كامنان فى جميع الأشياء فاعملوا بجد ومثابرة على خلاص أنفسكم » . وكانت هذه العبارة آخر ما تفوّه به بوذا .

وقد أحرقت جثة بوذا بعد وفاته واحتفظ بعظامه على أنها آثار مقدسة . وشيّد حول كل قطعة من هذه العظام مكان مقدس للعبادة نما على مر الأيام حتى أصبح هيكلا ضخماً من هياكل البوذية . لقد كانت عظام بوذا موضع التقديس والتبجيل فى بادئ الأمر ثم عبدت بعد ذلك وأقيمت المعابد للشخص الذى لم يدع الناس قط إلى عبادة إله من الآلهة ، وهكذا أصبح الملحد إلهاً .

تعاليم بوذا

لم يترك بوذا وراءه تعاليم مكتوبة ، كما أن شريعة بالى التى تتضمن هذه التعاليم لم يقدر لها التدوين إلا بعد وفاة بوذا بأمد طويل . ولا نستطيع أن نذكر إلى أى حد تمثل هذه الشريعة كلمات بوذا وتعاليمه التى قال بها ، ومن العجيب أن بوذا قد ضمن تعاليمه عبارات غامضة أو صعبة الفهم لا يتوقع أن تصدر من صاحب رسالة عالمية عليه أن يخاطب الناس بلغة سهلة بسيطة يفهمها الناس كافة كما هو الحال مع موسى أو عيسى أو محمد أصحاب الديانات السماوية الكبرى .

غير أن هذا العجب قد يتلاشى إذا علمنا أن بوذا قد عاش فى عصر عرف بالمحاورات والمساجلات الدينية العميقة ؛ وأن كثيراً من أقوال بوذا التى تبدو عليها مسحة من الحذلقة الفلسفية كانت تبدو طبيعية لدى أسماع الناس فى ذلك الوقت ، يضاف إلى ذلك أن بوذا نفسه لم يكن يشعر فى قرارة نفسه بأنه صاحب رسالة دينية أو منشىء دين جديد . وغاية الأمر أنه كان مفكراً مستنيراً أراد أن يكشف لنفسه عن أسرار الحياة وأن يجد الطريق إلى خلاص نفسه من آلام العالم ومتاعبه ، ولما شعر أنه وفق إلى هذا الطريق أراد أن يرشد إليه غيره من طلاب الحق والمعرفة .

ومهما يكن من الأمر فإننا نستطيع أن نقول إن الشريعة « البالية » ترسم لنا الخطوط الرئيسية فى تعاليم بوذا دون أن نقول إنها هى عين تعاليم بوذا وكلماته .

وأول ما نقوله فى هذا الصدد هو أن تعاليم بوذا كانت عملية فى حد ذاتها بعيدة كل البعد عن النظريات والتصورات الفلسفية الميتافيزيقية ، إذ كان هدفه الوحيد من تعاليمه هو خلاص النفس من متاعب الحياة وآلامها . فقد جاء فى نص قديم ينسب إليه هذه العبارة « لما كان المحيط الكبير ليس له إلا مذاق واحد هو الملح الأجاج ، كذلك الحال مع

هذه العقيدة ليس لها إلا مذاق واحد هو مذاق الخلاص والتحرر ».

كان بوذا يعمل جاهداً على أن يصرف تلاميذه عن هذه الرغبة الجامحة التى تدفع المرء إلى السؤال عن مسائل ما وراء الطبيعة وهى مسائل لا تؤدى إلى هذا التحرر والخلاص الذى ينشده . وقد كانت هذه المسائل تشغل بال المفكرين والفلاسفة فى ذلك الوقت ، مثل : هل العالم قديم أو حديث وهل هو أبدى أم له نهاية؟ وهل النفس خالدة أم غير خالدة ؟ وهل الشخص الذى نال الخلاص فى هذا العالم سوف يبعث ثانية بعد الممات ؟ ونحو ذلك من المسائل .

وقد حدث أن طلب ناسك من بوذا أن يجيبه عن هذه الأسئلة فما كان من بوذا إلا أن نهره ذاكراً له أن هذه الأسئلة ونحوها عبارة عن فلاة أو غابة ملتفة أو قيد من القيود ، وهى لا تؤدى إلى خلاص النفس من شهواتها بل تقترن عادة بالبؤس واليأس والحيرة . وعندما سأله الناس « وهل لبوذا بعض النظريات الخاصة به؟ » أجابه « إن بوذا خلو من كل النظريات وأن الحقيقة الواحدة التى يعرفها بوذا هى أن المرء مصيره إلى الفناء ، وهو إذا عرف ذلك عليه أن يحرر نفسه من التعلق بأى شىء ، وبذلك يصل إلى حالة النرفانا أى السعادة التى ليس من ورائها سعادة .

وتذكر الروايات أيضاً أن أحد الحكام ، وكان قد انضم إلى الطائفة البوذية ، شعر بقلق شديد لأن بوذا لم يجب عن تلك المسائل الفلسفية التى كانت تشغل بال المفكرين فى ذلك الوقت ، فذهب إلى بوذا وسأله ما إذا كان يعرف أجوبة هذه المسائل أم لا يعرفها فأجابه بوذا :—

« هل طلبت إليك الانضمام إلى طائفتى على شريطة أن أفسر لك وأجيب عن هذه المسائل ؟ » فأقر الحاكم أنه لم ينضم إلى الطائفة على هذا الشرط . ثم قال له بوذا : « إنك إذا كنت تعلق الانضمام إلى طائفتنا على معرفة أجوبة مثل هذه المسائل فإنك تكون أشبه بالرجل الأحمق السخيف يصيبه السهم المسموم فيأبى على الجراح أن ينزع السهم من جسده إلا بعد أن يخبره أى شخص هذا الذى أصابه بالسهم ، وما هو نوع السهم والوتر ؟ . إن الحياة الدينية لا تقوم على بحث هذه العقائد الخاصة بخلود العالم أو بعث النفس بعد الممات لأن هذه المسائل وأشباهها لا تؤدى إلى خلاص النفس وراحتها وبلوغها حال النرڤانا » .

على هذا النحو أعلن بوذا للملأ أنه لا يعنى بالنظريات والبحوث العقلية ولكنه يسعى عن طريق العمل إلى شفاء النفوس من الأمراض التى تعتريها فتسبب لها الألم والبؤس

والشقاء . فهو يشخص المرض فى بادئ الأمر ويعرف موطن الداء ، ثم يبحث عن سببه وبعد ذلك يصف العلاج ثم يرسم السبيل الذى يضمن نجاح هذا العلاج. ومن ثم وضع بوذا أربع حقائق تتمشى وهذه الخطوات التى ذكرناها :

الحقيقة الأولى : المكابدة والألم

يذكر بوذا أن الولادة ألم والانحلال ألم والمرض ألم والموت ألم ووجود الأشياء التى نمقتها ألم وعدم الحصول على ما نرغب فيه ألم وبالاختصار إن التعلق بالوجود ألم .

هذه هى عوارض الأمراض التى تعترى النفوس فتحيل حياة المرء بؤسا وشقاء . وهو لكى يبرهن على حقارة هذا العالم يقول : على المرء أن يتدبر بدنه من قمة الرأس إلى أخمص القدم ويتأمل كل ما يحويه هذا البدن من أقذار وأدران . فإذا ما وقع نظر الإنسان على جثة فى مقبرة من المقابر وقد انتفخت هذه الجثة واسود لونها وامتلأت بالعفن الكريه فليقارن عند ذاك بدنه بهذه الجيفة البشعة . حقا إن تلك هى طبيعة البدن وجوهره وهذا هو مآل الإنسان ومنتهاه ولا مفر له من هذا المصير المحتوم .

ويرى بوذا أن هذه الحقيقة الأولى لا تحتاج إلى برهان فهى

واضحة لكل ذى بصيرة وإدراك . وقد رماه البعض بالتشاؤم لهذا القول ولكنه يريد فى الواقع أن يرسم للناس طريق الخلاص مما هم فيه من بؤس وشقاء وألم .

الحقيقة الثانية : سبب المكابدة والألم .

يبحث بوذا بعد ذلك عن سبب هذا البؤس والشقاء والألم فيقول : إن سبب ذلك هو الرغبة الملحة فى اللذة والتعلق بالوجود والشوق إلى السعادة والهناء .

الحقيقة الثالثة : وقف المكابدة والألم

يرى بوذا أن وقف المكابدة والألم يتم عن طريق منع هذه الرغبة منعاً تاماً وهذا المنع فى جوهره هو انتفاء كل شهوة والتخلى عن كل رغبة بل وتدميرها تدميراً ، وبذلك نصل إلى النرڤانا وهى الحال التى ينتفى فيها الألم والمكابدة انتفاء تاماً .

وإليك أحد المزامير البوذية التى تتغنى بمباهج الخلاص من كل شهوة أو رغبة :

« فلنعش إذاً سعداء أحراراً من الجشع بين الجشعين ، ولنظل بين القوم الجشعين أحراراً من الجشع » .

« ولنعش إذاً سعداء وإن كنا لا نملك شيئاً ، سوف نكون

أشبه بالآلهة المشرقة تقتات على السعادة » .

« إن النصر يورث البغضاء لأن المهزوم يكون غير سعيد»

« إن الشخص الذى ينصرف عن النصر والهزيمة هو الشخص القانع السعيد » « ليس هناك من نار أشد من الشهوة وليس هناك من رمية فاشلة مثل البغض» وليس هناك من ألم مثل هذا البدن ، وليست هناك سعادة أسمى من الراحة والسكون»

« الجوع أفتك الأمراض ، والجسد أعظم الآلام فإذا ما عرف المرء ذلك حق المعرفة بلغ حال النرڤانا أى السعادة العليا » .

الحقيقة الرابعة : الطريق إلى منع المكابدة والألم .

إن الطريق المؤدى إلى منع المكابدة والألم ينقسم إلى ثمانى مراحل ، وهى : الاعتقاد الصحيح والقصد الصحيح والقول الصحيح والفعل الصحيح ووسائل العيش الصحيحة والمعنى الصحيح والذاكرة الصحيحة والتأمل الصحيح .

ويطلق بوذا على طريقه اسم الطريق الأوسط أى الوسط بين النقيضين ، فهو مثلا يوصى بتجنب الشهوات والملاذ وهو فى الوقت ذاته لا يرضى بالتقشف والزهد . والواقع أن كثيراً من قوة تعاليم بوذا كامنة فى نبل مثاله الخلقى وملاءمته للواقع .

وهو يبشر برسالة دون الإشارة إلى أية قوة عليا أو أى واجب ملزم .

الطائفة البوذية

لم يكن بوذا منشىء دين بالمعنى المعروف ولكنه كان صاحب طريقة وأسلوب فى الحياة يؤدى إلى خلاص النفس من آلامها ومكابداتها . وهذه الطريقة مفتوحة أمام جميع هؤلاء الذين تحللوا من كل الروابط الدينية .

والدخول فى هذه الطريقة يتم على مرحلتين : الأولى مرحلة التدريب أى المرحلة التى يمر بها المريد قبل أن يصبح راهباً بوذياً . ويقوم المريد فى هذه المرحلة بحلق شعره وذقنه وارتداء الرداء الأصفر شعار البوذية ويعلن للملأ أنه احتمى بالبوذا وبتعاليمه وبطريقته .

والمرحلة الثانية لا تتم إلا أمام مجمع الطائفة . ولا يسمح للمريد بالانتقال إلى هذه المرحلة الثانية إلا بعد التحقق من خلوه من الأمراض التى لا تؤهله لأن يكون عضواً فى هذه الطائفة البوذية . فإذا ما انتقل المريد إلى هذه المرحلة الثانية يبدأ فى تنفيذ شروط الطائفة وتعاليمها وأهمها الامتناع عن الاتصال الجنسى والابتعاد عن السرقة ، كما على الراهب البوذى عدم

الانغماس فى تناول الأشربة المخمرة أو تناول الطعام فى الأوقات المحرم فيها ذلك ، كما عليه الابتعاد عن الرقص والغناء ومشاهدة الملاهى والامتناع عن تزيين البدن وتعطيره أو اتخاذ مضجع أو مقعد مرتفع أو عريض وعدم قبول مال من أحد .

وعلى الجملة فإن الانتساب إلى هذه الطائفة معناه الفقر التام ، فالراهب عليه أن يخرج من بيته إلى حيث لا مأوى ولا بيت لأن الملكية قيد واستعباد . ويعيش رهبان الطائفة البوذية فى الأديرة والصوامع بعيدين عن زحمة الحياة ومفاتنها ، ويسمح للنساء بالانخراط فى سلك هذه الطائفة فيصبحن راهبات بوذيات يخضعن — مثل الرهبان — لأعنف القيود التى تكفل الطاعة والنظام بين أفراد هذه الطائفة . ولا نجد فى البوذية أى نوع من أنواع التعبد والصلاة المألوفة فى الأديان الأخرى ، فالبوذى لا يبتهل إلى إله ما ولا يسأل أية قوة غير منظورة العون والتوفيق . وكل ما يحدث هو أن يجتمع رهبان كل إقليم من الأقاليم البوذية للصيام مرتين فى الشهر مرة عند مطلع القمر الجديد والأخرى عندما يصبح القمر بدراً . ويقوم أكبر الرهبان سناً وأقدمهم فى سلك الطائفة بتلاوة بعض النصوص الأدبية البوذية وهى نصوص يعدونها من القداسة بحيث لا يجوز لأحد غير الكهنة والرهبان سماعها . ويسأل هذا الراهب إخوانه

ما إذا كان أحد منهم قد خرج على هذه القواعد والقوانين التى سبق أن أشرنا إليها فإذا اعترف أحد منهم أنه ارتكب خطيئة ما فإنه يفصل من سلك الرهبان أما إذا ظل الجميع سكوتاً فهذا دليل على طهارتهم وبراءتهم .

ويصوم الرهبان يومين آخرين فى كل شهر أى أنهم يقسمون الشهر إلى أربعة أسابيع ويصومون يوماً كل أسبوع ، كما أنهم يصومون يوماً آخر كل سنة عند ختام الفصل المطير ، وهم يقيمون لهذه المناسبة حفلا عاماً يضم رهبان الطائفة البوذية ويعملون فى هذا الحفل على تسوية ما قد يكون بين الرهبان من منازعات وللتأكد من سلامة مسلك الرهبان وعدم مخالفتهم لقواعد الطائفة البوذية وأنظمتها ، ولكن على الرغم من ذلك فإن المنازعات لا تبطل بين رهبان هذه الطائفة .

البوذية بعد بوذا

يقال إن بوذا قد عهد قبل وفاته بالإشراف على شئون الطائفة إلى كاسابا أحد مريديه المخلصين المقربين إليه ، كما أن هذا الأخير قد اختار قبل وفاته خليفة له على الطائفة . والظاهر أنه لم يكن لهؤلاء الرؤساء الروحانيين سلطان قوى على أفراد الطائفة . وتذكر بعض الروايات أن أحد الرهبان قد

ارتاح لموت بوذا لأنهم كما قال « سيستطيعون فعل ما يريدون » لذلك عمد كاساباً على الفور بعد وفاة بوذا إلى اختيار خمسمائة راهب بوذى وطلب إليهم الاجتماع معاً خلال الفصل المطير من السنة لتلاوة تعاليم بوذا والنظر فى قواعد الطائفة ونظمها حتى يكونوا على بصيرة منها فلا يخرجوا عنها قيد أنملة .

ولم يؤد هذا الاجتماع إلى وقف ما بين الرهبان من منازعات فى الرأى بل إن قسما كبيراً منهم طلب فى هذا الاجتماع التحلل من بعض القيود التى فرضها بوذا على رهبان الطائفة .

ووجدت البوذية بعد ذلك بقرن من الزمان مصلحاً ومدافعاً عنها فى شخص الملك أزوكا الذى عمل على نشر المذهب البوذى بكل الوسائل الممكنة ، وكان همه منصرفاً إلى جعل الهند موطن البوذية دولة يسودها العدل والصلاح . ويرجع إلى ذلك العهد وضع الشريعة البوذية المكتوبة ، وقد انتشرت البوذية بعد ذلك فى بورما وسيام وفى التبت ، وبلغ هذا الدين منتهى قوته فى الصين واليابان ، وهو لا يكاد يوجد اليوم إلا فى الدول المغولية فقد انعدم تقريباً من بلاد الهند .

وقد انقسم أتباع بوذا إلى فئتين : فئة كبيرة العدد وهذه ابتعدت كثيراً عن تقاليد بوذا الأصلية على مر الزمن ، وهى تعبده الآن على أنه إله وتنتشر هذه الفئة الآن فى الصين واليابان .

أما الفئة الثانية — وهى الأقل عدداً — فتنظر إلى بوذا على أنه صاحب أسلوب وطريقة خاصة فى الحياة ، لذلك هم يتجنبون المجادلات والمناقشات الدينية العقيمة التى لا تؤدى إلى خلاص النفس من الأدران التى تعلق بها . وتنتشر هذه الفئة فى البلاد الأسيوية الجنوبية مثل بورما وسيام .

كتب الديانة البوذية

تتألف الكتب الدينية التى تضم شريعة بوذا من ثلاث مجاميع تعرف باسم السلال الثلاث . والسلة هى ذلك الوعاء الذى ينتقل من يد إلى أخرى محملا بشىء من الأشياء مثل السلة أو « المقطف » الذى يستخدمه البناءون أو الحفارون فهو ينتقل من يد إلى أخرى محملا بالمواد المختلفة . ومن ثم عرفت الكتب الدينية البوذية باسم السلال لأنها تنتقل من معلم إلى آخر مشتملة على تعاليم هذه الطائفة البوذية .

وتعرف المجموعة الأولى باسم « سلة النظام » أو « الطريقة» وتشمل القواعد والنظم التى يسير عليها الرهبان فى حياتهم .

وتعرف المجموعة الثانية باسم « سلة العظات » وتشمل تعاليم بوذا الأصلية مسلسلة وفق نظام خاص .

وتعرف المجموعة الثالثة باسم « سلة العقائد » ، وتضم مسائل فلسفية مختلفة وهى المجموعة التى يتداولها أفراد الطائفة البوذية بوجه عام .

البوذية وأهل المشرق

لقد كان للبوذية أثر عميق فى نفوس أهل المشرق ، فقد عمد بوذا إلى مهاجمة الخرافات والأوهام والضلالات التى كانت شائعة فى عهده بين أهل المشرق وأهمها عبادة الأرواح ، أى جعل روح لكل كائن من الكائنات إنساناً كان أو حيواناً أو نباتا . والظاهر أن بوذا كانت له صفة الواعظ المفوه الذى يستأثر بقلوب سامعيه . وقد جرت عادته على توضيح عظاته بالقصص والأمثال نذكر منها ما يلى :

جاءته ذات يوم امرأة وبين ذراعيها طفلها وقد اخترمته المنية وسألت بوذا أن يعطيها الدواء الذى يعيد الحياة إلى طفلها الحبيب فقال لها بوذا : « لقد أحسنت صنعاً بمجيئك إلىّ تسألينى الدواء لهذا الطفل الميت . عليك أن تذهبى إلى المدينة وتطرق بيوت أهلها بيتاً بيتاً لتحصلى على بذر الخردل من بيت لم يمت من أهله أحد . ولم تمض هذه المرأة طويلا فى بحثها إذ أدركت ما يقصد إليه بوذا من هذا القول

فذهبت إلى الجبانة لتوسد طفلها قبره وقد أخذت يده بين يديها وقالت :

« ولدى الصغير ! لقد حسبت أن الموت قد عدا عليك وحدك ولكن الموت هو مصير الناس أجمعين » ثم لزمت بوذا وأصبحت من مريديه . ويرجع الفضل أيضاً فى شيوع تعاليم بوذا بين الناس وتعلقهم بها إلى روحه الديمقراطى وحدبه على الفقراء والمساكين ووقوفه فى صفوفهم ضد الأثرياء وأصحاب الجاه والسلطان . لقد كان بوذا كما ذكرنا من قبل نبيل المولد سليل الملوك والأمراء وأهل الجاه والثراء ، ولكن نفسه عافت هذا المجد الزائل واتخذ حياة الفقر والزهد وكان يغضب ويثور على الأغنياء الذين يضطهدون الفقراء ويسومونهم سوء العذاب . ومن الطبيعى أن يلتف حوله الضعفاء والفقراء وهم سواد الشعب فى كل أمة ، كما التفوا بعد ذلك حول عيسى المسيح ثم حول محمد رسول الله من بعده .

وهو مع ذلك لا تأخذه هوادة فى تعنيف الفقراء والمستضعفين الذين لا يسيرون فى الطريق المستقيم ، فقد جعل الأخلاق القويمة والسيرة الطاهرة والذكر الحسن فوق الثروة والجاه ، بل فوق كل الطقوس والشعائر ، فالدين فى رأيه هو المعاملة وليس هذه الطقوس والرسوم التى يصطنعها رجال الدين .

ومما زاد من تعلق الناس بهذا الدين الجديد الذى جاء به بوذا أنه بث فى الطقوس والشعائر الدينية القائمة روحاً جديداً خرج بها عن جمودها ، كما أعطى للعادات والتقاليد الشائعة معنى خلقياً جديداً بعد أن كانت مجرد أفعال لا معنى لها .

تعاليم بوذا والفكر الحديث

هناك فى تعاليم بوذا — على الرغم من كل ما ذكرناه — أشياء كثيرة لا تتمشى والفكر الحديث . فهو كما قلنا من قبل يقلل من قيمة الحياة الإنسانية ويحتقر البدن الإنسانى أشد الاحتقار وهو يشير إليه فى أحاديثه بقوله :

« هذا الهيكل ذو الثقوب التسعة .

هذا الجسد القذر ، هذه المقبرة الخاصة بعظام الموتى » .

وكان بوذا ينظر إلى العلاقات والصلات العائلية نظرة ازدراء وعدم اكتراث ، وكان أكثر من ذلك ينظر إلى المرأة على أنها كائن أقل قدراً ومكانة من الرجل ، وهذا على عكس المعاصرين الذين يقدرون المرأة حق قدرها وخاصة من أهل أوربا وأمريكا .

وقد حدث أن طلبت إليه خالته التى احتضنته وهو صغير بعد وفاة أمه أن يقبلها بين مريديه وتلاميذه ، ولكنه رفض

طلبها وكرر هذا الرفض ثلاث مرات . وأخيراً بعد إلحاح سمح لها على كره منه أن تلتحق بالطائفة البوذية على أن لا تتعدى أحد المراكز القليلة الأهمية من مراكز هذه الطائفة قائلا بهذه المناسبة :

« والآن إن هذا النظام الدينى سوف لا يعمر طويلا ، فكما أن البيوت إذا كثرت بها النساء وقل بها الرجال فإنه من السهل على اللصوص اقتحامها ، كذلك الحال فى العقائد فإنه إذا انضمت امرأة إلى طائفة من الطوائف الدينية فإن ذلك نذير بقرب زوالها » .

وعندما كان بوذا على فراش الموت سأله تلميذه المقرب إليه أناندا قائلا :

« كيف نتصرف أيها السيد إزاء النساء ؟ »

« لا تروهن يا أناندا » ولكن أناندا كان يدرك أن ذلك غير مستطاع فاستدرك قائلا :

« وكيف نتصرف إذا وقع بصرنا عليهن ؟ »

« لا تحدثوهن ياأناندا » ولكن هذا التلميذ المحبب إليه عاد قائلا :

« وكيف نتصرف إذا تحدثت إلينا واحدة منهن ؟ »

« لا تكترث ولا تلق بالا إلى ما تقول ياأناندا » .

على أنه يجب علينا أن نعترف أن كثيراً من آراء بوذا

وتعاليمه كانت وليدة للبيئة التى نشأ بها ، غير أن ما أداه للفكر الإنسانى أمر لا يمكن إنكاره أو حصره . وكفاه فخراً أنه علّم الناس كيف ينشدون السلام والراحة والطمأنينة عن طريق كبح جماح شهواتهم وأطماعهم .

البوذية فى الوقت الحاضر

إن الناظر فى أحوال البوذية ومركزها فيما بعد الحرب العالمية الثانية يرى أن التعاليم والآراء البوذية لم يصبها الوهن والاضمحلال فى أية دولة من الدول البوذية مع استثناء الصين ، بل إن نفوذها آخذ فى الزيادة المطردة فى بعض هذه الدول . على أن الوحدة بين أتباع هذا المذهب ما زالت هى الدولة ، فليست هناك أى دلائل تدل على قيام نظام أو كتلة بوذية عالمية تكون قوة مؤثرة فى سياسة العالم ونظمه ، وإن كان ضغط الاضطهادات الشيوعية فى الشرق الأقصى قد يساعد على خلق مثل هذه القوة البوذية العالمية . وليس من السهل خضوع البوذية للأنظمة الدولية أو لأى نظام آخر ، لأن اتجاهها ينحصر فى حث الفرد ودفعه لكى يبلغ درجة التنوير والتثقيف ، فهى لا تصبو إلى القوة الدنيوية أو الجاه والسلطان ، بل إن البوذيين الذين يشتركون فى أمور السياسة هم فى نظر أفراد هذه الطائفة

إنما يحطون من قدر لباس البوذية الذى يرتدونه .

وليس للبوذية رئيس أعلى أى ما يشبه البطريق أو البابا ؛ وليس للمعبد البوذى فى أية جهة ما — مع استثناء التبت — سلطة زمنية (دنيوية) وعلى ذلك فإن التعاون الدولى بين أفراد هذه الطائفة ينحصر فى تبادل آراء البوذية وتعاليمها وفى أحسن الطرق المؤدية إلى نشر هذا المذهب . ولا يمنع هذا من أن تكون القوة الروحية لهذا المذهب ذات أثر متزايد على العالم فى الوقت الحاضر .

وإذا استعرضنا اليوم الدول التى ينتشر فيها هذا المذهب نجد أن اليابان فى طليعة هذه الدول ، وفيها اليوم حركة انتعاش كبيرة للمذهب البوذى ، على الرغم من المحاولات التى يبذلها الأمريكيون لحمل اليابانيين على اعتناق الدين المسيحى ، قائلين إن المسيحية خير عون على بلوغ المزيد من الرخاء والرفاهية المادية .

أما فى الصين فالبوذية آخذة فى الاضمحلال فى هذه البلاد الشاسعة شأنها شأن الأديان الأخرى هناك ، وإن كان أثر الكونفشيوسية (مذهب كونفشيوس) لا يزال واضحاً فى الصين غير أن الجيل الحديث هناك يهتم بالسياسة الغربية وبالمثل الغربية .

وإذا اتجهنا إلى كمبوديا وهى ذلك القسم الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة الأسيوية الذى تختلط فيه الأجناس والأديان ، نجد أنه من الصعب إعطاء فكرة صحيحة عن هذا المذهب البوذى هناك . فالأديان جميعاً فى كمبوديا آخذة فى الاضمحلال تحت ضغط الحروب الأهلية ، على أننا نجد من ناحية أخرى أن عدد الجمعيات البوذية فى تلك البلاد آخذ فى الازدياد وليس من شك أن ذلك إشباعٌ لحاجة الأهالى إلى مثل هذه الجمعيات .

أما سيام فهى الدولة البوذية الوحيدة التى يسعى فيها رجال الطائفة إلى الاتصال بالأفكار والنزعات الحديثة . وقد كانت اللغة هى العقبة الكؤود أمام هذا الاتصال ، غير أن البوذيين هناك أخذوا يقبلون على تعلم اللغة الانجليزية ، كما أن كثيراً من المصنفات التى وضعت عن البوذيّة تترجم اليوم من اللغة السيامية وإليها . ثم إن زعماء هذه الطائفة يذيعون عن طريق الراديو الأهلى هناك أحاديث أسبوعية عن البوذية وتعاليمها ، يضاف إلى ذلك أن الاتحاد البوذى فى سيام — وهو تحت الرعاية الملكية — يزداد قوة ونفوذا على مدى الأيام . والحالة فى بورما معقدة بسبب الحروب الأهلية هناك ، غير أن الخطر الشيوعى قد دفع الناس إلى التعلق بالطريقة البوذية فى الحياة .

ولا تزال بورما فى طليعة الدول البوذية على أساس أن هذا المذهب البوذى هو العامل الأكبر المؤثر فى حياة البوذيين .

والحال شبيه بذلك فى جزيرة سيلان على الرغم من انضمام عدد كبير من المبرزين من أهل تلك الجزيرة إلى الكنيسة المسيحية . فالمسيحيون هناك يعملون منذ مدة طويلة على إنشاء المدارس النظامية ، وأهل الجزيرة مضطرون إلى إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس لينالوا أحسن قسط من التعليم والتهذيب ، غير أن شعورهم الحقيقى لا يزال إلى جانب البوذية مع ميلهم أيضاً إلى الهندوسية ، وقد ازداد النشاط البوذى فى سيلان بعد تحررها من الرقابة الأجنبية ، وظهرت من جديد المشروعات الخاصة بنشر الثقافة البوذية بين ربوع هذه البلاد ، وإعادة ترميم الآثار والمنشآت البوذية . وخلاصة القول إن الطائفة البوذية فى سيلان فى مركز عال وأن البوذية هناك مستكملة أسباب التقدم والنهوض ، نستدل على ذلك من أنها استطاعت لفرط نشاطها هناك أن ترسل الإرساليات التبشيرية إلى جميع العالم البوذى .

أما الهند فقد خرجت عن نطاق الدول البوذية وذلك منذ القرن الحادى عشر الميلادى . غير أن الجمعية البوذية التى تأسست فى سيلان عام ١٨٩١ ، أخذت توالى نشاطها فى طول البلاد الهندية وعرضها ، وتعنى بأمر الحجاج البوذيين الذين

يفدون على الهند لزيارة البقاع المقدسة البوذية ، وهى تقوم أيضاً بالدعوة إلى المذهب البوذى وتعمل على إنشاء المدارس والمكتبات والمعابد البوذية . ونشاطها موضع تقدير الهندوس واحترامهم .

البوذية فى بلاد الغرب

لا يعلم أحد متى ظهرت البوذية فى الغرب لأول مرة . لقد قام نفر من علماء العالم الغربى بترجمة كتب المشرق القديمة إلى اللغات الأوربية الحية وكان من بينها الكتب البوذية . ويرجع الفضل لهؤلاء العلماء فى معرفة أهل أوربا وأمريكا بالمذهب البوذى .

وكانت البوذية حتى نهاية القرن التاسع عشر لا تعنى سوى نفر من العلماء الغربيين دون غيرهم من الناس ، ثم تغير الحال منذ مطلع القرن العشرين . فى عام ١٩٠٦ قام أحد الإنجليز ممن اعتنقوا هذا المذهب البوذى يحاضر الناس فى البوذية علانية بحدائق هايد بارك ولم يلبث أن أنشأ هو وبوذى انجليزى آخر الجمعية البوذية الإنجليزية ، التى أخذت تزاول نشاطها فى الجزر البريطانية بما فيها أيرلندا وقد أصدرت مجلة باسم المجلة البوذية Buddhist Review لتكون لسان حالها .

وفى عام ١٩٢٥ وصلت إلى لندن بعثة من الجمعية البوذية العامة بسيلان لإنشاء فرع لهذه الجمعية فى لندن . وقد لاقت هذه الجمعية المساعدة التامة من الجمعية البوذية الإنجليزية ، وظلت هاتان الجمعيتان تتعاونان معاً على نشر الدعوة البوذية فى انجلترا حتى الوقت الحاضر. وفى عام ١٩٢٩ أنشأت السيدة كونستانت لونسبرى جمعية أصدقاء البوذية Les amis du Bouddhisme فى باريس ، وقد انضم إلى هذه الجمعية بعض المبرزين من أعضاء الهيئات الفرنسية المختلفة مثل السوربون ؛ على خلاف الحال فى انجلترا إذ كان دعامة الجمعيتين البوذيتين الإنجليزيتين من أهل الطبقة الوسطى فى انجلترا .

ولجمعية أصدقاء البوذية فى باريس صلات وثيقة بالجمعيات البوذية فى سيلان والهند الصينية ، كما أن لها أفرعاً تمثلها فى أنحاء مختلفة من أوربا ، وهى تصدر مجلة بوذية مرة كل ثلاثة أشهر بعنوان الفكر البوذى La Pensée Bouddhique . ولعل أشهر شخصية بوذية بفرنسا فى الوقت الحاضر هى مدام الكسندرا دافيد — نيل التى أصدرت جملة مؤلفات عن البوذية فى بلاد التبت أكسبتها شهرة عالمية فى هذا الموضوع .

وكانت البوذية موضوع دراسة واسعة فى ألمانيا فيما بين

الحربين الأخيرتين . وأنشأ الدكتور بول دالكه Dr. Paul Dahlke بالقرب من برلين أول معبد بوذى فى البلاد الغربية . وما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى خرج إلى الوجود عدة جمعيات وهيئات بوذية فى البلاد التى تتحدث اللغة الألمانية . وبذلت محاولة كثيرة لتوثيق التعاون بين هذه الجمعيات والهيئات .

ولقد قامت فى الوقت ذاته جمعيات بوذية أخرى فى كل من هولندا وبلجيكا وفنلندا والسويد وسويسرا . ولعل هذه الجمعيات البوذية كلها قد قامت على أنقاض ما دمرته الحرب العالمية الأخيرة ؛ لأن من طبيعة الديانة البوذية أنها تواجه مشكلة الشر والآلام التى تنزل بالبشرية ، وتعمل على حلها . فهى تشير إلى أسباب هذا الألم والمكابدة وتنتهى إلى معرفة السبب المباشر لهذا الألم والمكابدة ، وهو الرغبة والطموح وتعمل على تدمير هذه الرغبة تدميراً .

وقد لاقت البوذية فى الولايات المتحدة حماسة بالغة ، فهناك فى أمريكا اليوم أكثر من مائة جمعية بوذية ، والهمة مبذولة اليوم لتكوين مكتب عام للاتحاد البوذى الأمريكى لتوحيد نشاط هذه الجمعيات البوذية وتدعيمها .

وقبل أن نختتم هذا الفصل نذكر أنه فى عام ١٩٤٥ ،

شعرت الجمعية البوذية فى انجلترا بمسيس الحاجة إلى وضع مختصر عن قواعد البوذية وتعاليمها لا يزيد على ثلاث ورقات ونصف ورقة من الحجم الكبير . وقد تم بالفعل وضع هذا المختصر الذى يتضمن اثنتى عشرة قاعدة بوذية . وقد عرضت الجمعية هذا المختصر على مراكز البوذية فى الدول البوذية فأقرته اليابان ثم من بعدها سيام والصين وبورما وسيلان ، كما أقره مندوبون بوذيون من التبت . وفيما يلى هذا المختصر الذى يتضمن القواعد البوذية :

١ — إن خلاص نفس أى فرد من الأفراد هى المهمة المباشرة بالنسبة لهذا الفرد . فإذا ما جرح شخص بسهم مسموم فالواجب عليه أن لا يؤخر انتزاع هذا السهم من جسده انتظاراً لطلب تفصيلات عن الشخص الذى أصابه بهذا السهم ، وعن طول السهم وكيفية صنعه . سوف يكون هناك متسع من الوقت لزيادة تفهم التعاليم البوذية خلال السير فى الطريق المرسوم . فابدأ الآن بمواجهة الحياة كما هى وتعلّم دائماً عن طريق التجربة الشخصية المباشرة .

٢ — إن الحقيقة الأولى فى الوجود هى قانون التغير وعدم الدوام . إن كل شىء فى الوجود من حيوان الخلد إلى الجبل ومن الفكرة من الفكر إلى الإمبراطورية من الإمبراطوريات

يمر خلال دورة الوجود ذاتها ، أعنى : النمو والانحلال ثم الموت . والحياة وحدها هى الشىء المستمر وهى دائماً تسعى إلى الإفصاح عن نفسها فى صور جديدة . والحياة جسر ، ومن ثم فلا تبنى بيتاً فوق هذا الجسر . والحياة عملية من عمليات التدفق والجريان فمن يتعلق بأية صورة من الصور مهما تكن جمال هذه الصورة فسوف يقاسى نتيجة لمقاومته لهذا التدفق والجريان .

٣ — إن قانون التغير ينطبق بالمثل على النفس . فالفرد خلو من أى مبدأ خالد أو لا يتغير . والتجرد المطلق هو وحده الحقيقة النهائية التى لا يصيبها التغير ، وكل صور الحياة بما فيها الإنسان هى مظاهر لهذه الحقيقة . وليس هناك من إنسان يملك هذه الحياة التى تدب فى أوصاله شأنه فى ذلك شأن المصباح الكهربائى ، فهو لا يملك ذلك التيار الكهربائى التى يبعث فيه الضوء .

٤ — والعالم هو مظهر القانون . وكل معلول له علة : ونفس الإنسان وطباعه هى مجموع أفكاره وأفعاله السابقة . «والكارمه» Karma — ومعناها الفعل ورد الفعل — هى التى تتحكم فى الوجود بأسره . والإنسان هو المبدع الوحيد لظروفه وأحواله وانعكاساته عليها ، ولظروفه وأحواله المستقبلة ، ولمصيره الأخير .

وهو يستطيع بالفكر الصائب والعمل الصحيح أن يظهر بالتدريج طبيعته الباطنة . وهذا العمل يستغرق عهوداً طويلة تشمل الحياة تلو الحياة على سطح الأرض ، ولكن سوف تصل فى النهاية كل صورة من صور الحياة إلى التنوير والتثقيف .

٥ ــ الحياة واحدة غير منقسمة وإن كانت أشكالها المتغيرة على الدوام لا حصر لها وهى قابلة للفناء . وليس هناك فى الحقيقة موت وإن كان الموت مصير كل صورة من صور الحياة . إن الرحمة وليدة إدراك وحدة الحياة وفهمها . وقد وصفت الرحمة بأنها قانون القوانين وأنها التناسق الأبدى وأن الذى يشذ عن هذا التناسق سوف يصيبه الألم والمكابدة ، كما أنه يؤخر من تنويره وتثقيفه .

٦ ــ لما كانت الحياة واحدة وجب أن تكون مصلحة الجزء هى عين مصلحة الكل . والإنسان لجهله يظن أنه يستطيع أن يكافح بنجاح فى سبيل مصلحته الخاصة . وهذا النشاط الأنانى الموجّه توجيهاً خاطئاً يؤدى إلى المكابدة والألم . والإنسان يتعلم من مكابدته كيف يقلل من سبب هذه المكابدة ثم ينتهى به الأمر إلى التخلص من علة هذه المكابدة. ولقد علّمنا بوذا أربع حقائق نبيلة هى : ١ ــ وجود الألم والمكابدة فى كل مكان ٢ ــ علة المكابدة وهى توجيه الرغبة توجيهاً

خاطئاً ٣ ــ علاج المكابدة وذلك بالتخلص من علّها
٤ ــ الطريق ذو الثمانى مراحل الموصل فى النهاية إلى القضاء على الألم والمكابدة .

٧ــ إن هذا الطريق السالف الذكر يتألف من المراحل التالية :

الآراء الصحيحة ؛ والأهداف الصحيحة ؛ والقول الصحيح والأفعال الصحيحة والمعيشة الصحيحة ؛ والمجهود الصحيح ؛ والذاكرة الصحيحة ؛ والتأمل الصحيح . وهذه المراحل تؤدى إلى التنوير الكامل . ولما كانت البوذية طريقة فى الحياة وليست مجرد نظرية فحسب ؛ فإن ولوج هذا الطريق أمر جوهرى لخلاص النفس« امتنع عن فعل الشر ؛ وتعلم كيف تفعل الخير ؛ وطهّر قلبك » هذه هى تعاليم بوذا .

٨ ــ إن الحقيقة شىء لا يمكن وصفه ، وإن القول بإله له صفات معينة ليس ذلك هو الحقيقة النهائية ، غير أن بوذا وهو الكائن الإنسانى قد غدا الشخص الذى بلغ كمال التنوير . وإن بلوغ حال النرڤانا أمر ممكن بلوغه فى هذه الحياة الدنيا . إن الناس جميعاً وكل صور الحياة الأخرى تتضمن فى ذاتها إمكانية التنوير ثم يصبح هذا التنوير بالفعل باتباع الخطوات السابقة .

٩ — إن الطريق الأوسط يقع بين التنوير بالقوة والتنوير بالفعل، وهذا الطريق يبدأ من الرغبة وينتهى إلى حالة الطمأنينة والسلام . وهو طريق وسط بين المتناقضات ، يتحاشى السائر فيه الأطراف النهائية . وقد سار بوذا فى هذا الطريق حتى نهايته . والشيء الوحيد المطلوب الإيمان به فى البوذية هو أنه ما دام بوذا المرشد قد سار فى هذا الطريق فعلينا أن نسير فيه . ويجب أن يسير الناس جميعاً فى هذا الطريق فلا يقتصر الحال على خيارهم فقط . ولا بد من أن يتقدم القلب والعقل فى الوقت ذاته إلى الأمام .

١٠ — إن البوذية تهتم أشد الاهتمام بالتأمل والتركيز الباطنى وهذا يؤدى مع مضى الزمن إلى تنمية الملكات الروحية . فالحياة الذاتية هامة مثل الحياة المادية المحيطة بنا . وإن فترات من الراحة والطمأنية للنشاط الباطنى للمرء لأمر ضرورى لحياة متوازنة . إن البوذى يجب عليه فى كل الأوقات أن يكون حاضر الذهن رابط الجأش عزوفا عن التعلق العقلى أو العاطفى بالمظاهر العابرة . وهذا التيقظ والانتباه للظروف — التى يدرك أنها من إبداعه — يساعده على أن يجعل انعكاساته بصدد هذه الظروف تحت رقابته وسيطرته .

١١ — لقد قال بوذا : « اعمل على خلاص نفسك بجد

ونشاط » ولا تعرف البوذية دعامة للحق سوى وجدان الشخص وبديهته . وكل فرد يتحمل نتائج أفعاله الخاصة ؛ وهو يدرك ذلك إبان قيامه بمساعدة زملائه على خلاص أنفسهم . إن الصلاة والتوسل ببوذا أو بأى إله آخر لا يحول دون أن يتبع المعلول علته . إن الرهبان البوذيين هم معلمون ومُثل للناس ، فهم لا يتدخلون بأى شكل من الأشكال بين الحقيقة والمرء . والتسامح المطلق يجب أن يكون موجهاً إلى جميع الأديان والفلسفات . لأنه ليس لأى إنسان حق التدخل فى رحلة جاره نحو الهدف .

١٢ — إن البوذية ليست مذهباً يتصف بالتشاؤم أو الهروب من مواجهة الحقائق ، ولا هو بالمذهب الذى ينكر وجود الله أو الروح ، وإن كان يسبغ على هذه الألفاظ معانيه الخاصة . بل إن البوذية على العكس من ذلك طريقة للتفكير ، ودين من الأديان ، وعلم روحى وأسلوب معقول فى الحياة يتصف بأنه عملى ومحيط بكل شىء .

إن هذا المذهب قد أشبع الحاجات الروحية لما يقرب من ثلث الجنس البشرى منذ أكثر من ألفين من السنين . وهو يروق فى أعين أهل الغرب لأنه خلو من العقائد المقررة ، وهو يرضى ويقنع العقل والقلب معاً ، وينص على الاعتماد على النفس

وعلى التسامح مع جميع الآراء والمذاهب الأخرى . والمذهب البوذى علم ودين وفلسفة وعلم نفس وآداب للسلوك وفن . وهو يبصر الإنسان بأنه هو مبدع حياته الحاضرة ، وأنه هو الذى يرسم ويصمم مصيره ومستقبله .